الثروة المالية والمادية وأثرها في تكوين وأسناد الزعامة القبلية في المجتمع العربي قبل الاسلام

أ.م.د.عبد الفتاح عبد الله محمود

/ جامعة البصرة

مقدمة البحث :

كان للثروة المالية والمادية اثرها البالغ منذ اقدم الازمنة وحتى الوقت الحاضر في تكوين الزعامات المختلفة واسنادها ، وبصفة عامة ان اصحاب النفوذ السياسي لهم الكلمة النافذة في القرارات التي تتخذ في مجتمعاتهم ، والمجتمع العربي قبل الاسلام وعلى وجه الخصوص القبائل العربية القاطنة في الحواضر او تلك التي في البوادي والصحاري اذ اخذت الثروة المالية دورها في هذه المجتمعات . ولقد تناولنا في بحثنا هذا جانباً يتعلق بأثر هذه الثروة في اسناد ودعم الزعامات القبلية بشكل عام ومدى تأثيرها داخل هذه المجتمعات القبلية في خلق وايجاد التفاوت والتمايز الطبقي في المجتمع الواحد بشكل خاص . وهذه الدراسة انقسمت الى قسمين تناول المبحث الاول مدى تأثير الثروة في المجتمعات القبلية القاطنة في الحواضر او المدن العربية قبل الاسلام ، فقد كانت هذه المجتمعات اكثر نشاطاً وتعقيداً من الناحية العلمية في المجال التجاري والصناعي والزراعي مما يعني زيادة وتكاثراً في رؤوس الاموال والتي كانت الى حد ما محصورة في ايدي فئات او جماعات محددة داخل هذه المجتمعات وهي المسيطرة والمتنفذة فيها وتشكل الواجهة السياسية والاقتصادية فهم الزعماء وسادة القبائل ومنهم التجار والاثرياء اصحاب رؤوس الاموال . ولقد تناولنا هذا المبحث بشيء من التفصيل لان المجتمع الحضري يحوي جوانب وظيفية مختلفة الى جانب التجارة والزراعة والصناعة ، كالوظائف المتعلقة بمكة والبيت فيها ، وأدراتها تمثل الزعامة فيها .

والجشع والتسلط من قبل الزعماء او السادة القبائل كان بدافع زيادة الثروة المالية كفرض الحمايـة ودفع الاتاوة والربا ، وكان هنالك وجه اخر في دعم الزعامة بالثروة المالـية عـن طريق السخاء والكرم ، اضف الى ذلك ماكان لهؤلاء الزعماء من حقوق يفرضونها على مجتمعاتهم بغية زيادة ثرواتهم المالية والمادية .

امـا المبحـث الثاني فانه تناول الثروة والزعامة في المجتمع القبلي البدوي ، هذا المجـتمع وان كـان يتسم بالبساطة اكثر من سابقة الا ان النواحي المالية والمادية اخذت جانبها ودورها في المجتمع في اسناد ودعم للزعامة فيه ايضاً، وكان المتنفذون والزعماء فيه هما نفسهم اصحاب الثروة ممن يمتلكون قطعان الانعام، وهم واجهات قبائلهم فرضوا انفسـهم عن طريق هذه الثروة وسخروها في تطويع الاخرين لخدمة مصالحهم فكان ان ظهـر التسلط والجشع من قبلهم على هيئة الحقوق والواجبات ، فلم يكتفوا بحصصهم من الغـنائم بـل تعـدى ذلـك الى الاجحاف في اخذ ما في اعناق افراد قبائلهم حتى وصل الاستبداد بهم بفرض الحمى بشكل يتعدى حدود المعقول كما فعل كليب وائل .

ولقـد اعتمد البحث على مصادر عديدة اغنته بالمعلومات المختلفة كان منها كتاب النقائض لابي عبيدة معمر بن المثنى وكتاب السير النبوية لابن هشام ابو محمد عبد الملك وكـتاب اخـبار مكة للازرقي ، والطبقات لابن سعد ابو عبد الله محمد ، والبيان والتبين لابـي عـثمان عمـرو بـن بحر الجاحظ ، وتاريخ اليعقوبي ، وكتاب انساب الاشراف للـبلاذري ، وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري والعقد الفريد لابن عبد ربه والاغاني للاصفهاني والجمهرة لابن حزم والاستيعاب لابن عبد ربه ومعجم البلدان لياقوت الحموي ولسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي والاحكام السلطانية للماوردي والاصابة لابـن حجر ، وكتاب الكامل في التاريخ وكتاب اسد الغابة لابن الاثير ، وبعض الدواوين الشـعرية ومصـادر اخرى ، جميعها افادت البحث بما اورنته من معلومات متناثرة فيها وكانت عوناً ورافداً لنا في اغنائه بالمعلومات المطلوبة .

الثروة والزعامة في المجتمع القبلي الحضري قبل الاسلام :

لقـد كان للثروة المادية التي يمتلكها بعض الافراد في المجتمع العربي قبل الاسلام اثـراً بارزاً وكبيراً في اضفاء السلطة والهيمنة لهؤلاء في مجتمعاتهم القبلية فكانوا بمثابة السـادة او الواجهـات الرسمية لقبائلهم المختلفة ، وفئة القبائل التي كانت تسكن المدن او

الحواضر لعبت الثروة المادية دورها في تكوين الزعامة والسلطة فيها على نحو مختلف عن المجتمع القبلي البدوي نتيجة للتطورات الاقتصادية التي اصابت المجتمع الحضري بما في ذلك تطور التجارة والزراعة ونمو الانتاج وتكاثر رؤوس الاموال .

ويبدو ان المجتمعات الحضرية وشبه الحضرية كان يحكمها ملوك وربما كان المقصود بهم رؤساء القبائل في القرى والمدن فقصي بن كلاب اول بني كعب بن لؤي اصاب ملكاً[1] او انهم سادة قبائل مع شيء من التسلط فقد تجاوزوا الحدود الى ما يشبه الملك وقد أطلق احياناً رب القبيلة بمعنى رئيسها[2]. فلم تكن لفظة الملك تطلق على من توج ملكاً على دولة معينة فقط وانما كانت تتجاوز الى الزعامات الادنى من ذلك .

وكان من نتاج التفاوت المادي واتساع الثروة وجود طبقات اجتماعية تلي الملك او سيد القبيلة في المجتمع الحضري كان منها طبقة الاشراف وكانت الملوك تقطعهم القطائع ويسمون بذوي الاكال وطبقة الردافة وهي طبقة تلي الملك وتترفع عن عامة الناس وقد قامت حروب عديدة من اجل منصب الردافة نتيجه لمردوده المادي ومن ذلك يوم ذات كهف ويوم طخفة[3].

ويعد منصب الردافة في اغلب الاحيان لسادات القبائل التي تدين بالولاء والطاعة لاحد الملوك ، وكان الملك اذا ركب ردف ورأوه صاحب الردافة واذا نزل جلس عن يمينه فتصرف اليه كأمر الملك اذا شرب وله ربع غنيمة الملك من كل غزوة وله اتاوة على كل من في طاعة الملك[4]. وقد اشار حسان بن ثابت الى الردافة في قوله :-

وافضل ماتلتم من المجد والعلى ... ردافتنا من بعد ذكر المكارم [5]

وعلى ذكر الاتاوة ، فان قسماً من القبائل العربية لها سادات من خارجها حيث كانت تدخل فيها القبائل المجاورة لبعض الامارات مثل أمارة كندة مع قبائل ربيعة التي نصب عليها الحارث الكندي ابناءه ، او أمارة الحيرة حيث كانت داخله فيهم بنو الديان وبنو تغلب ، مما يبدو ان الاتاوة كانت تساق الى الملك لاينتمي الى هذه القبائل نظير بسط حمايته عليها وقد كانت مدعاة للفخر لانها دلالة على السيادة وبسط السلطان وقد جاء في شعر عامر بن الطفيل يخاطب بني الديان :-

عجبًا لو اصف طارق الاحزان ... ولما تجيء به بنو الديان
فخروا علي بجيرة لمحرق ... واتاوة سيقت الى النعمان[6] .

وقد كانت الاتاوة موضع سخط القبائل التي تدفعها الى الملك او الزعماء المسيطرين عليها لانها باهضة وتجبى بالعنف والقسوة وقد وصف جابر بن حني التغلبي ذلك بقوله:

وفي كل اسواق العراق أتاوة ... وفي كل ما باع أمرؤ مكس دراهم
الاتستحي منا ملوك وتتقي ... محارمنا لايبوؤ الدم بالدم
فما على الملوك ألسلم ما قصدوا ... بنا ونيس علينا قتلهم بمحرم[7]

كما انعكس الجانب المادي واتساع الثروة وأثرها في الزعامة والمكانة القبلية على جانب اخر من عادات القبائل قبل الاسلام فيما عرف بالديات ، فقد كانت دية النفس لعامة الناس مائة من الابل ، اما دية الاشراف فقد كانت الف بعير أي عشرة امثال الدية المعروفة[8] . وقد ذكر ان قيس بن زهير اشترى اسيرة معاوية بن انجون بالف بعير وهي دية الملوك[9] . وعلى حد قول فراد بن حش الصاردي : ــ

بعشر مئين للملوك سعى بها ... ليوفي سيار بن عمرو فاسرعا

في قصة لسيار بن عمرو الفزاري الذي احتمل للاسود بن المنذر دية ابنة الذي قتله الحارث بن ظالم[10].

وهي خير دليل على هذا التفاوت المالي والمادي حتى في دفع الديات بين الملوك والزعماء وسادات القبائل وبين عامة الناس .

ولقد سخر كثير من الزعماء العرب قبل الاسلام ثرواتهم المالية المادية في خدمة مواقعهم القيادية بشكل ملفت للنظر عن طريق اسلوب السخاء والكرم ، ولو نظرنا الى الامر من زاوية اخرى نجد ان السخاء والكرم ، أو بالاحرى استخدام الثروة المالية والمادية بهذا الاسلوب المغاير لاسلوب التعسف والجور في جمعها،كان من اجل دعم الزعامة القبلية بواسطة هذه الثروة وتسخيرها طريق تسليط الاضواء على هؤلاء الزعماء، وعلى العكس مما سوف نجده في المبحث الثاني من هذا البحث في قصة كليب وائل واحيحة بن الجلاح وزهير بن جذيمة العبسي ، وخير مثال لدينا على الحالة الاولى ماذكر عن سخاء وكرم حاتم الطائي الذي كان مضرباً للامثال حتى قيل فيه (اجود من حاتم)[11] يضرب للرجل المجواد صاحب الكرم والسخاء .

وفي قصة ذكرها الاصفهاني ، نجد الثراء الفاحش لبعض السادة من زعماء ووجهاء القبائل العربية وكيف كان يستخدم المال والثروة المادية في دعم مركز الزعامة القبلية عن طريق المفاخرة والسخاء والكرم ، فهذا اياس بن قبيصة الطائي يتبرع بالاموال الطائلة

لاسناد حاتم الطائي ، وابن عم له يتبرع بتسعمائة بعير من اجل ذلك ايضاً . وتذكر القصة ان بني لام اصهار للنعمان بن المنذر ملك الحيرة ارادوا مفاخرة حاتم الطائي لهذا جمع قومه وناشدهم ان يعينوا ابن عمهم ، قال رجل منهم :عندي مئة ناقة سوداء ومئة ناقة حمراء ادماء ، وقال اخر : عندي عشرة احصن على كل حصان منها فارس مدجج لايرى منه الاعيناه ، وقال ثالث : ان ابي قد مات وترك كلاً (مالاً) كثيراً فعلي كل خمر او لحم او طعام ما اقام في سوق الحيرة، وقال ، اياس : على مثل جميع ما اعطيتم كلكم ، وبادر ابن عم لحاتم الطائي قائلا" : هذا مالي وعدته يومئذ تسعمائة بعير فخذها مئة مئة حتى تذهب الابل او تصيب ما تريد[12] .من هذه القصة نستشف مدى التأثير المادي والثروة المالية في اسناد ودعم الزعامة للقبلية قبل الاسلام ، فهؤلاء زعماء القبائل اصبح لديهم من الثراء المالي والمادي حداً غير معقول كان يستخدم في وجه من الاوجه في تثبيت سلطتهم وتسليط الاضواء على زعماتهم ، فليست المفاخرة والسخاء والكرم في هذا الموضوع هي الاساس وانما هو الاشارة الى مكانتهم الاجتماعية وابرازها امام الاخرين على نحو أعلامي ، لان الشهرة مرادفة للزعامة .

لعبت الثروة في مكة والمدينة المقدسة عند العرب قبل الاسلام دوراً كبيراً واساسياً في صراع الزعامة فيها ، ويتفق كافة المؤرخين على ان الزعامة فيها كانت لقبيلة جرهم القحطانية ثم تحولت الى قبيلة خزاعة بزعامة عمرو بن لحي الذي نصب الاصنام فيها ودعا العرب الى عبادتها فاطية[13] . هذه الدعوة كانت بواطنها اقتصادية بالدرجة الاولى من اجل زيادة موارد مكة المالية عن طريق حج القبائل العربية اليها لذلك اودعها الكعبة ووزع قسم منها على بقية ارجاء مكة[14] .

وقد كانت قبيلة خزاعة تنزل في شعابها وجبالها[15] .وكان حليل بن حبشية اخر زعيم لخزاعة في مكة ، وقصي بن كلاب، زعيم قريش كان متزوجاً من ابنته حبى بنت حليل[16]. اذن كيف اصبحت الزعامة في مكة الى قصي بن كلاب لماذا ، الم تكن الثروة المالية والمادية المتنامية عند قصي هي السبب الرئيسي والحاسم في هذا الموضوع ، الم تكن هذه الثروة هي اداة الضغط التي دفعت بعمر بن عوف بن كلب ان يصدر امره في التحكيم لصالح قصي بن كلاب على ان تكون الزعامة له في مكة يذكر ابن سعد في الطبقات ان قصي بن كلاب اصبح لديه ثروة مالية كبيرة جداً يستطيع بها ان يمارس الضغط والتأثير على الاخرين اذ كثر ماله وكثر اولاده وعظم شرفه وراى انه اولى

بالبيت وامر مكة[17]. وعندما مات حليل بن حبشية زعيم خزاعة حدث نزاع وقتال بين قصي وقومه قريش وحلفائهم من بكر من جهة اخرى ، ثم اراد الطرفان الصلح فجعلوا يعمر بن عوف بن كلب حكماً بينهم وهنا بدا تأثير الثروة المالية والمادية في اسناد اصحابها من اجل الزعامة على مكة ، فكان ان اصدر يعمر بن عوف حكمه لصالح قصي بتولي امر مكة والكعبة ، وان كل دم اصابه من خزاعة وبني بكر يشدخه تحت قدميه[18] . والشدخ معناه الكسر والتعبير هنا مجازي أي اسقاطه[19]. في حين اعطى الحق لقريش وحلفائهم من المطالبة بالديات وعلى خزاعة وحلفائها من بكر تأدية ذلك ، وان ما اصابت خزاعة وبني بكر من قريش وبني كنانة وقصاعة ففيه الدية مؤداة[20] . اما قصي فله الزعامة على مكة والكعبة ، فسمي بذلك يعمر الشداخ لانه اسقط دماء خزاعة وبني بكر[21]. فكان هذا الحكم والقرار العربب غير المنصف ناتجاً عن ظهور زعامة اقتصادية مؤثرة تمتلك الثروة المالية القادرة بها من التأثير في مجريات الامور لصالحها ، فكان ما كان واصبحت مكة والبيت فيها خاصة لقريش ، ومن هنا تدخل الثروة المالية في تقسيمات مكة الادارية والاجتماعية الجديدة بشكل مؤثر ومتمايز بحيث اوجدت فروقات طبقية داخل المجتمع قائمة على مقدار الثروة المالية والنفوذ الاقتصادي ، واولى هذه الخطوات كانت في اسكان قريش في مكة واقرارها في منازلها الجديدة وعلى حسب الحالة ، فمن كانت لهم فيها بعض من النفوذ الاقتصادي والثروة المالية اسكنهم قصي في بطاح مكة وحول الكعبة وهم الاثرياء والتجار ، اما من كانت حالتهم دون ذلك فانه اسكنهم في ظواهر مكة ، فظهر تقسيم طبقي قائم بناءً على الثروة المالية والمادية، قريش البطاح وقريش الظواهر[22].

اما قصي بن كلاب صاحب الثروة المالية والمادية المؤثرة فانها قد اوصلته الى الزعامة على مكة والكعبة فيها فحاز سدانة البيت والحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء[23] .

ولقد ورث اولاد قصي نفوذاً اقتصادياً هائلاً من بعده فكان لولده البكر الندوة والحجابة والسقاية والرفادة واللواء[24]. وهي مناصب سياسية ومؤسسات اقتصادية في المجتمع المكي ونجد ذلك في وصية اوصاها قصي بن كلاب لابنه عبد الدار بقوله (اما والله لالحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك)[25] من اجل ان يساويه بالشرف والثروة التي عند ابنه الاخر عبد مناف .

ان الثروة المالية والمادية لعبت دوراً بارزاً في المجتمع الملكي قبل الاسلام ، فكان ان ظهرت طبقات متفاوتة اقتصادياً في هذا المجتمع بشكل ملفت للنظر ، وكان لها تأثير ايضاً حتى بين اوساط الفئة المنتفذة نفسها. فقد انتزع العباس بن عبد المطلب وظيفة الرفادة والسقاية من اخيه ابي طالب نتيجة لقوة تأثير الثروة المالية[26]. اما بنو امية فقد كانت لهم الصدارة في مكة والزعامة فيها قبيل الاسلام[27] . اذ اصبح فيهم اعظم التجار، وهذا يقودنا الى الحالة التي كانوا يعارضون بها بشدة الاسلام حين ظهوره فوقفوا موقف العداء من الرسول الكريم (ص) وذلك من اجل الحفاظ على تجارتهم وثرواتهم المالية ومراكزهم السياسية[28]. كونهم زعماء قريش ومكة واصحاب الثروة فيها .

وكانت الرحلات التجارية وهي الايلاف بقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ((لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف))[29] . الصيفية والشتوية الى بلاد اليمن وبلاد الشام وعقد المحالفات مع امراء المناطق المختلفة ورؤساء القبائل الواقعة على طرق القوافل التجارية فضلاً عن الاسواق الموسمية كسوق عكاظ وغيره والاهتمام بالحج واموره من سقاية ورفادة وغيرها من اجل زيادة الحجيج الى مكة ، كل ذلك ادى بالنتيجة الى تدفق الاموال والمراكز السياسية ، وما دار الندوة الا مثال لهؤلاء السادة والزعماء من مكة واشرافها وتجارها يناقشون فيها امور تجارتهم واسواقهم وامور الحج[30].

لقد اوجدت الثروة المالية المتنامية لدى هؤلاء الزعماء والمتنفذين من قريش تمايزاً طبقياً بين افراد المجتمع حتى في الحقوق والواجبات، وحسبي انه لايحق لاحد من عامة الناس مطالبة هؤلاء الزعماء والاشراف بدفع مال له ، فقد كان العاص ابن وائل احد حكام العرب قبل الاسلام قد ماطل رجلاً من زبيد في مال له حتى جاهر بظلامته حول الكعبة فاجتمعت قريش بدار ابن جدعان[31] ،فكونوا حلف الفضول[32] من اجل نصرة المظلومين والضعفاء من افراد المجتمع واحقاق حقوقهم واسترجاعها من المتنفذين واصحاب الثروة المالية .

كما ان التفاوت في الثروات المالية والمادية ادى بالنتيجة الى ايجاد نظرة لاتخلو من الاستعلاء والترفع في المجتمع الحضري قبل الاسلام عند الملوك او سادة القبائل اتجاه الرعية ونجد في تعبيرهم عن الرعية بالسوقة لان الملوك تسوقهم وهي نظرة فيها من الاستعلاء والتمايز الاجتماعي بشكل ملفت للنظر ، وتحضرنا في هذا الصدد ابيات شعر قالتها هند بنت النعمان ابن المنذر ملك الحيرة بعد زوال ملك ابيها :

فبينا نسوس الناس والامر امرنا ... اذا نحن فيهم سوقة ننتصف
فنبأ لدنيا لايسدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف[33]

وقد ظلت هذه النظرة الاستعلائية سائدة لدى هؤلاء الزعماء حتى مجيء الاسلام ومثالنا على ذلك قول جبلة بن الايهم للخليفة عمر بن الخطاب مشيراً الى الفزاري (اتقيده مني وانا ملك وهوسوقه)[34]. كما دعت هذه النظرة الاستعلائية والترفع عن الناس الى اثارة بعض الاشراف او وجوه القبائل وخاصة تلك التي لم ترتبط مع ملوكها بروابط العصبية[35]. وقد عرف بعض الافراد باسم الخلعاء لتمردهم بوجه اصحاب السلطة واصحاب الثروة ، فقد سمي رباح بن عمرو بن ربيعة الخليع لتخلعه من الملوك لايعطيهم الطاعة[36]. وهنا يختلف المعنى عن المعنى المتداول الذي تخلعه القبيلة لكثرة جرائره .

كما اشتهر المجتمع الحضري القبلي قبل الاسلام من ناحية الثروة بالتفاخر بالمال وبوجود التفرقة والتمايز على هذا الاساس بين فئات المجتمع المختلفة وبين الفئات القبيلة الواحدة نفسها وخاصة فئة الزعامة فيها ،ومن خلال مفاخرة التي حدثت بين جرير البجلي وبين خالد بن أرطأة البجلي حيث قال جرير مفاخراً " نحن اهل الذهب الاصفر "[37]. نلتمس من هذا التفاوت والتمايز القائم على الثروة المالية والمادية داخل المجتمع الحضري القبلي قبل الاسلام.

وكان جمع الثروة المالية والرغبة في زيادتها من الصفات التي لازمت بعض الزعماء ورؤساء القبائل ووجهاء القوم ، فقد كان احيحة بن الجلاح سيد الاوس قبل الاسلام قد أشتهر بحبه للمال وكان مكثراً منه عن طريق الربا وقد تركته زوجة سلمى بنت عبد المطلب نتيجة لذلك[38]. وقد ورد في شعر له يذكر حبه للمال :-

أستعن او من ولايغررك ذو نسب ... من ابن عم ولاعم ولاخال
يلوون ما عندهم من حق اقربهم ... ومن عشيرتهم والمال للوالي[39]

كما اشتهر كثير من سادات قريش وزعمائها بحبهم للمال والجاه والغنى الفاحش منهم كان حامي الذهب الذي يشرب في اناء من ذهب عبد الله بن جدعان[40]. وابو سفيان كان عظيم المال قليل النفقة وعفان بن ابي العاص واسيد بن ابي العاص وغيرهم من قريش وقد سادوا في قومهم[41].

الثروة والزعامة في المجتمع القبلي :

اطلقت تسمية البدو على كثير من القبائل العربية التي سكنت في بوادي الجزيرة العربية وصحاريها وهي كلمة منسوبة الى البوادي ، فكلمة - البدو - مشتقة من البادية وتطلق بصفة عامة على ساكنيها ، وقد يقال اهل الوبر نسبة الى الخيام المصنعة من وبر الابل [42] التي يسكنوها وهي بيوت يحملونها اينما شاؤا واينما استقروا طلباً للماء والكلأ، ويعتمد هذا المجتمع بشكل عام في حياته المعيشية والاقتصادية على تربية الانعام والتي تشكل الابل النسبة الغالبة فيها ، وليس بخاف على أي مطلع على حياة البدو وطرق معيشتهم ان الظروف المناخية وخاصة كمية الامطار ووقت سقوطها لها الدور المؤثر في معيشتهم وحياتهم الاقتصادية ، لذلك اصبح التنقل صفة من صفات هذا المجتمع طلباً لاماكن الرعي واماكن تواجد المياه بعد سقوط الامطار .

ان المجتمع البدوي اكثر بساطة من المجتمع الحضري ، اذ لاتوجد المجالات التجارية والصناعية بشكلها المعقد وكمها الهائل ، انما تحتسب الثروة فيها على كمية الانعام في المجتمع البدوي الواحد او القبيلة الواحدة ، ومن البديهي ان الانعام في هذا المجتمع او بالاحرى الثروة الاقتصادية لاتتوزع بشكل متساو بين جميع افراده فلابد من وجود تفاوت في كمية الانعام التي يمتلكها افراد القبيلة الواحدة ، وهذا انعكس بشكل مباشر على حقوق الافراد انفسهم واسلوب معيشتهم ومراكزهم الاجتماعية داخل القبيلة الواحدة فكان فيه الاغنياء والفقراء فضلاً عن العبيد[43]. ومما هو معروف ان المهنة الرئيسية في هذا المجتمع البدوي البسيط هي الرعي، ومن يمتلكون الانعام ، اصحاب الثروة ، هم ممثلي القبيلة وواجهاتها الرسمية وهم بطبيعة الحال الفئة المتنفذة داخل مجتمع القبيلة الواحدة اصحاب النفوذ الاقتصادي ورؤس الاموال يسخرونها لغرض فرض سيطرتهم على بقية افراد القبيلة ، لذلك كان منهم مجلس القبيلة ، وهو يمثل السلطة القيمة في ادارة شؤونها وعلاقاتها الخارجية في فترات السلم والحرب ، وكان لكل قبيلة مجلس وهو النادي الذي يحضره كل راشد من افراد القبيلة للتشاور فيما بينهم لكل حادثة او طارئة تهم القبيلة [44]. ومن الطبيعي ان تسيطر على المجلس الفئات ذات النفوذ الاقتصادي او الاشخاص الذين يمتلكون قطعان الانعام وهم يمثلون واجهة القبيلة بما يمتلكونه من نفوذ مالي ومادي يستطيعون به التحكم بالافراد الاخرين من القبيلة، لذلك فان

القرارات المتخذة في هذه المجالس القبلية كانت تتخذ بوساطتهم وتحت تأثيرهم لاجل حمايـة مصالحهم ، امـا بقية افراد القبيلة الاخرين من اصحاب الاقتصاد او الثروة المتدنية ، خاصة الفقراء منهم فانهم لايمتلكون أي نفوذ او تأثير او سلطة في المجالس المذكورة ، بل كان عليهم طاعة اصحاب النفوذ اصحاب الثروة العالية المالية في القبيلة ، لذلك كثيراً مانجد فئات كثيرة من الفقراء والمتمردين يخرجون عن طاعة قبائلهم ويحملون السلاح بوجه الاغنياء من افراد قبيلتهم، وهم الصعاليك ، الصعلوك هو الفقير الذي لايملك مالاً [45]. وقد يبعد الفقراء من نوادي قبائلهم او مجالسها فيشعرون بالذل والهوان ، لذلك نرى ان الصعاليك في محاولتهم الخروج على قبائلهم انما هو بدافع التمرد ضد هذه الفوارق الطبقية التي نشأت داخل مجتمع القبيلة الواحدة ، ومن اجل اسماع اصواتهم لمن يعدوهم انداداً لهم من اصحاب النفوذ والجاه في قبائلهم . وقد صور عروة بن الورد موقف الصعاليك هذا في مقارنة بين الاغنياء والفقراء من افراد القبائل بقوله :-

ذرني للغنى اسعى فاني	رأيت الناس شرهم الفقير
واهونهم واحقرهم لديهم	وان امس له كرم وخير
ويقصى في الندى وتزدريه	حليلته و ينهره الصغير
ويغنى ذو الغنى وله جلال	يكاد فؤاد صاحبه يطير
فاييل ذنبه واتذنب جم	ولكن الغنى رب غفور

امـا رئيس القبيلة فهو اعلى سلطة فيها ويشار اليه بسيد القبيلة وهو المسؤول عنها ايـام السلم وايام الحرب [47]. وكان لابد ان تتمثل فيه خصال معروفة كالنجدة والسخاء والتواضـع والبيان ، وتقـع عليه واجبات اتجاه افراد قبيلته كالاستماع الى قضاياهم ومشاكلهم المختلفة وايجاد الحلول المناسبة لها، والابتعاد عن الظلم والتعسف ومعاملتهم بالحسنى والمساواة ، كما انه يحكم في الخلافات المختلفة ويفض النزاعات بين المتخاصمين ويدير المناقشات في مجلس القبيلة ويتولى المفاوضات مع القبائل الاخرى ، وهو المسؤول عن اداء واجب الضيافة للقبيلة ، وبيده امر الترحال الجماعي وتحديد اماكن الاستقرار ، كما انه يتولى قيادة القبيلة اثناء الحرب ، وعلى افراد القبيلة اطاعته له والعمل بما يفرضه عليهم من حقوق وواجبات ، وكانت رئاسة القبيلة في بداية الامر وراثية ، واذا لم يعقب سيدها فانهم يختارون اقرب الناس اليه او ربما بعيداً عنه يحمل الصفات والمواصفات الضرورية لرئاسة القبيلة [48] .

جميع هذه الامور كانت موجودة قبل ان تجد الثروة المالية والمادية طريقها في المجتمع البدوي ومن ثم تبدأ المؤثرات الاقتصادية في البروز على حساب عادات وتقاليد العربية البدوية،وعندما بدأت الثروة دورها في اختيار رؤساء القبائل نجدهم قد اخذوا في توسيع ثرواتهم الشخصية وتوسيع سلطانهم ونفوذهم فاخذوا في امتلاك القطعان الكبيرة من الاغنام وبقية انواع الماشية الاخرى كما اخذوا في تنمية وتوسيع املاكهم الخاصة،وتبدو امتيازات سادة القبائل فيما يخصصونه لانفسهم من الغنائم فقد كان لهم الربع من الغنائم بوجه عام ولهم ما يقومون به بمجهودهم الشخصي ولهم ايضاً مايتبقى من الخيل والشاة والبعير فحقوقهم كانت المرباع والنشيطة والفضول والصفايا،وكما يقول عبد الله بن عنمه:

لك المرباع منا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[49]

وذكر الزبرقان بن بدر سيد بني تميم وشاعرها ذلك ايضاً

وان لنا المرباع في كل غارة تغير بنجد او بارض الاعاجم[50]

لذلك نجد ان الثروة المالية اخذت في الازدياد والنمو عند هؤلاء السادة من مختلف القبائل العربية ، وبازديادها أصبحوا اكثر استبداداً وظلماً ، فكانت مدعاة لقيام حروب طاحنة دامت سنوات عدة نتيجة لهذا الظلم وهذا الجور ، ودليلنا على ذلك ماكان عليه كليب وائل من جشع وظلم واستبداد فكانت النتيجة ان قامت حرب البسوس ، وكليب وائل كما ذكر المؤرخون اسمه وائل بن ربيعة وهو من بني جشم من تغلب ، ولقب بكليب لانه يأخذ معه جرو كلب اينما سار فاذا مر على ارض او موضع اعجبه لخضرته وكثرة مائه فانه ياخذ يضرب الجرو حتى يقوم بالعواء ومن ثم يلقيه في ذلك المكان وهو يعوي فلا يسمع احد من الناس عواء هذا الجرو الا تجنب ذلك المكان ، فلايستطيع احد ان يرعى ابله او يستسقي منه الابانذنه [51] . وبذلك ازدادت ثروته المالية والمادية فزاد طمعه واستبداده ، فكان يختار احسن الاراضي وافضلها لنفسه لترعى بها ابله بينما منعها عن الاخرين من افراد قبيلته او افراد "قبائل الاخرى كما منع عن الناس مواضع الماء [52] .

ولقد بلغ استبداد كليب وائل وجشعة المادي انه اتخذ مواقع السحاب حمى له فلا يرعى بهسا احد غيره[53] . كما ذكر ان له حمى من العالية لايقربه احد غيره ولايطأه ، وبلغ به الامر انه جعل في حمايته بعض انواع الوحوش من الحيوان فكان يقول وحش ارض كذا في جواري فلا يصاد ولايقربه احد[54] . وكان من شدة استبداده انه اذا جلس لايستطيع احد من الناس المرور بين يديه ولاتورد ابل احد مع ابله الابأمره وبموافقته

ولاتوقد نار مع ناره ولايجير من القوم احد اويحمي حمى الا بأمر منه[55] ولاينزل قومه ولايرحلون الابأذنه [56].

ومن اسباب قيام حرب داحس والغبراء ماصاب الناس من ظلم وتعسف نتيجه لاستبداد سادة القبائل من اجل زيادة ثرواتهم المادية وقد قامت هذه الحرب بين بني عبس واحلافهم من جهة وبين بني ذبيان واحلافهم من جهة اخرى والتي استمرت ما يقارب الاربعين عاماً وان كانت بصورة متقطعة [57]. ولقد كانت هوازن ترعى انعامها في الجبال فاذا كانت ايام سوق عكاظ جاؤا بالاتاوة التي عليهم من السمن والاقط والغنم ونعطيها الى زهير بن جذيمة العبسي وهي مكرهة على ذلك فكانت هذه الاتاوة سبباً في مقتله [58]. وكان من تعسفه في اخذ ما في اعناق افراد القبيلة ان جاءته عجوز بالسمن وشكت له السنين واعتذرت فدعها بالسيف حتى انكشفت عورتها [59].

ولقد لعبت الاسباب الاقتصادية الى جانب الثروة المالية دوراً في قيام بعض من التحالفات بين عدة قبائل عربية مختلفة قبل الاسلام ، اذ كانت الثروة تلعب الدور الاساس في بروز الزعامات القبلية لقبيلة معينة على حساب القبائل الاخرى المتحالفة معها ، فقد قام حلف بين بني يربوع وثقيف على اقتسام المحاصيل الزراعية في الطائف مناصفة بينما يتعهد بنو يربوع على ان يمنعوا ثقيفاً ممن ارادهم من العرب[60] كما قام حلف بين جبة والرباب فكان يسمى حلف الرباب[61]. كما كان حلف بين بني حميس بن عامر بن جهينة وبين بني سهم بن مرة وكانت السيطرة فيه والهيمنة لبني سهم[62] وفي ذلك يقول البكري" فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلىء والتماسهم المعاش في المشع وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوي الضعيف ،انضم الذليل منهم الى العزيز وحالف القليل منهم الكثير"[63].

الخاتمة :-

لقد تناول البحث اثر الثروة المالية والمادية في دعم واسناد الزعامة القبلية في المجتمع العربي قبل الاسلام،وبيان الاوجه المختلفة لهذا الاثر من الناحية العلمية والمعنوية

ولقد اوضحنا كيفية تسخير هذه الثروة من اجل الوصول الى الزعامة في تلك المرحلة والتي كانت قائمة على النظام القبلي بشكل عام ، ومما يبدو ان الاساليب كانت متنوعة في كيفية الاستخدام فكان منها الجشع والتسلط الى حد الظلم والاستبداد ، وتارة

اخـرى الى الكرم والسخاء بشكل يفوق حد معقول . وقد انعكس ذلك بشكل واضح على علاقات المجتمع القبلي اذ ظهر التفاوت المالي والمادي فكان نتيجة ظهور التفاوت الطبقي بيـن افراد وفئات المجتمع الواحد والقبيلة الواحدة ، لذلك ظهرت افرازات متنوعة كان منها الحروب التي قامت بين قبائل عربية عدة قبل الاسلام واستمرت سنوات عدة ، ومنها ايضاً النظرة الاستعلائية والترفع عند اصحاب الثروة المالية من الزعماء وسادة القبائل ، كما افرزت الخلعاء والصعاليك والخارجين على قبائلهم حباً ومطالبة بالمساواة في الحقوق والواجـبات ، الى غيرها من امور اخرى تعرضنا لها في هذا البحث جميعها كانت ناتجة عـن دخول المعيار المادي والثروة المالية في حسابات المجتمع القبلي الحضري والبدوي قـبل الاسلام ومدى الاسلوب الذي كان يستخدم في استغلال وتسخير هذه الثروة من اجل الوصول الى المراكز العليا والزعامة فيها .

الهوامش والمصادر :-

1- ابـن عبد ربه ، ابو عمر بن عبد ربه الاندلسي،(ت 328)هـ: العقد الفريد ، تحقيق احمد امين واحمد بن احمد الزين وابراهيم الابياري،مطبعة لجنة التأليف والترجمة،ط3 ، القاهرة ، 1952 ، 2/ 56 .

2- الاصـفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن احمد القرشي (ت356) هـ: كتاب الاغاني، دار الكتب المصرية، ط1 ، القاهرة ، 1369 هـ / 1950، 11 /78 .

3- ابو عبيدة ، معمر بن المثنى التميمي (ت 209) هـ : نقائض جرير والفرزدق ، طبع لندن ، 1907 ، 1/ 66 .

4- المصدر نفسه 1/ 66 .

5- ابـن الاثير،عز الدين ابن الاثير الجزري(ت 630):اسد الغابة في معرفة الصحابة ، قدم له السيد شهاب الدين النجفي : المكتبة الاسلامية، طهران، 1957، 1/ 137 .

6- ديـوان عامـر بن الطفيل ، راوية ابي بكر عمر بن القاسم الانباري عن ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب ، دار صادر – بيروت ، 1969 ، ص 139 .

7- المفضل الضبي ، الفضل بن محمد الضبي : المفضليات ، شرح وتحقيق : عبد السلام هارون ومحمد شاكر ، دار المعارف ، ط4 ،مصر ، 1964، ص139 .

8- ابو عبيدة :مصدر سابق ، 1 / . 38 .

9- المبرد: الكامل ، 1 / 14 .

10- الالوســي، محمد شكري الالوسي البغدادي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب، تحقيق محمد بهجت الاثري ، طبع دار الكتاب العربي ط1 ، مصر 1942،3 / 22 .

11- الميداني ، احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم : مجمع الامثال ، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، مصر ، 1955، 1/ 182 .

12- الاصفهاني : المصدر السابق 16 / 95 .

13- ابــن الجــوزي ، ابي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي ، (ت 597) هــ : تلبيس ابليس ، دار الفكر ، بيروت ، (د. ت) ، ص73 .

14- الازرقــي،ابو الوليد محمد عبد الله احمد (ت 219) هــ:اخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح محسن ، دار الثقافة ، ط2 ، مكة المكرمة 1385 هــ / 1/ 34، 1965.

15- البلاذري ، احمد بن يحيى ، (ت279)هــ : انساب الاشراف ، تحقيق محمد حميدالله ،دار المعارف – مصر ،1959،1 /49، الطبري،ابو جعفر محمد بن جرير(ت 310)هــ : تــاريخ الرسـل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف – مصر ، 1969 ، 2/ 16 .

16- ابن سعد ، ابو عبد الله محمد سعد بن منيع (ت . 23) هــ : كتاب الطبقات ، دار صادر– بيروت ، 1985،1/ 49 .

17- المصدر نفسه 1 / 48 .

18- الزبــيدي ، الســيد محمــد مرتضى الحسيني (ت 1205) هــ : تاج العروس من جواهــر القاموس، تحقيق عبد الكريم الغرباوي ، مراجعة ابراهيم السامرائي وعبد الستار احمد فراج ، الكويت ، 1967 ،2 / 262 .

20- الطبري : مصدر سابق،2 /17 .

21- اليعقوبــي ، احمد بن اسحاق بن جعفر (ت 278)هــ : تاريخ ابن واضح اليعقوبي، طبع النجف – العراق ، 1964، 1/ 209 .

22- البلاذري : مصدر سابق 1 / 19 .

23- الازرقي : مصدر سابق 1/ 19 .

24- اليعقوبي : مصدر سابق 1 / 211 .

25- الازرقي : مصدر سابق 1 / 65 .

26- ابـن حجـر، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي (ت 852) هـ : الاصابة في تمييز الصحابة ، دار احياء التراث العربي،بيروت، 1328 هـ،2 / 263 .

27- ابن هشام، ابوعبد محمد عبد الملك (ت218)هـ:السيرة النبوية ، مطبعة مصطفى البابي واولاده - مصر، 1929 ،1 / 158 ، ياقوت : معجم البلدان 5 / 391 .

28- ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، دار بيروت للطباعة ، بيروت للطباعة ، بيروت ، 1965 م ، 2 / 122 .

29- سورة قريش : الاية 1 - 2 .

30- ابن سعد ، مصدر سابق،1 / 50 ابن الاثير : الكامل 2 / 13 .

31- الماوردي ،ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت 405) هـ : الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، 1960 ، ص78 ومابعدها .

32- حلـف الفضول :- لقد اجتمع بنو هاشم واسد وزهرة وتحالفوا على ان لايظلم احد قريـب ولاغريب ولاحر ولاعبد الاكانوا معه حتى يأخذوا حقه من أنفسهم ومن غيرهم/ ابن منظور / مختار الاغاني في الاخبار والتهاني ، تحقيق طه الجابري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مطبعة عيسى البابي - القاهرة ، 1966 ، 6 / 109 .

33- يـاقوت الحمـوي ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت (626)هـ: معجم البلدان ، منشورات مكتبة الاسدي ، طهران 1965، 2/ 708 .

34- ابن عبد ربه : مصدر سابق 2 / 56 .

35- علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام،دار العلم للملايين - بيروت ، مكتبة النهضة - بغداد (1969ط1) ،5 / 221 .

36- الاصفهاني : مصدر سابق 5 / 23 .

37- الالوسي : مصدر سابق 1 / 301 .

38- الجـاحظ ، ابـو عـثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت 255) هـ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر ، 1950 ،2 / 361 .

39- الاصفهاني : مصدر سابق 5 / 38 ، الجاحظ : مصدر سابق 2 / 361 .

40- الالوسي : المصدر السابق 2 / 87 .

41- ابن حزم،ابو محمد علي بن سعيد بن حزم الاندلسي:(ت 456) هـ ، جمهرة انساب العرب،تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط 3، مصر ،1971 ،/ ص80 .

42- الزبيدي : مصدر سابق 3 / 594 .

43- الالوسي : مصدر سابق 1 / 285 .

44- ابن منظور،ابو الفضل جمال الدين محمد مكرم (ت711) هـ :لسان العرب، قدم له عبد الله العلالي، اعداد يوسف خياط،دار لسان العرب - القاهرة ، د. ت،15 / 316 .

45- المصدر نفسه ، مادة صعلك .

46- ديوان عروة بن الورد / ص58 .

47- ابن منظور : لسان العرب 215/4 .

48- علي جواد: مصدر سابق 4 / 349 .

49- ابن عبد البر، ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرشي (ت 463) هـ : الاستيعاب في معرفة الاصحاب، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، 1928 ،3 / 24 .

50- ابن هشام : مصدر سابق 4 / 211 .

51- ابن الاثير : الكامل 1 / 524 .

52- القلقشندي ، ابو العباس أحمد (ت821) هـ : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، وزارة الثقافة والارشاد القومي - القاهرة ، د. ت ،1 / 391 .

53- ابن عبد ربه : مصدر سابق، 5 / 213 .

54- الاصفهاني : المصدر سابق 5 / 29 ، ابن الاثير : مصدر سابق 1 / 524.

55- ابن عبد ربه : مصدر سابق 5 / 214 .

56- الاصفهاني : مصدر سابق 5 /29 .

57- ابن عبد ربه : مصدر سابق 5 / 152 .

58- الاصفهاني : مصدر سابق 11 / 82 .

59- المصدر نفسه 11 / 82 .

60-ابن الاثير : الكامل 1 / 685 .

61- علي ، جواد : مصدر سابق،4 /511 .

62- الاصفهاني : مصدر سابق 12 / 118 .

63- البكري ، ابو عبد الله عبد العزيز البكري الاندلسي (ت487)هـ معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ، 1949 ،1 / 53 .